جامعة المنصورة
كلية الآداب

النزعة الصوفية عند ولي اللّه الدهلوي
" دراسة تحليلية نقدية"

إعداد

محمد منصور محمد منصور

إشراف

السيد محمد عبد الرحمن

استاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف

جامعة المنصورة

مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة
العدد الثامن و الستون – يناير ٢٠٢١

النزعة الصوفية عند ولي الله الدهلوي
"دراسة تحليلية نقدية"

محمد منصور محمد منصور

تمهيد:

لقد استقر الحكم الإسلامي في الهند ورسخت أقدامه وقامت له دولة امتدت لأكثر من ثمانية قرون، تعاقبت في اثنائها الدول والأسر الحاكمة، ونعم الناس بالأمن والسلام، والعدل والمساواة، وازدهرت الحضارة على النحو الذي لا تزال آثارها الباقية في الهند تخطف الأبصار وتبهر العقول والألباب.

وما زالت الدراسات الإسلامية في المحيط العربي لا تعرف إلّا القليل عن مفكري الإسلام في شبه القارة الهندية، على الرغم من أن شيئاً من المقولات الاعتقادية والمفاهيم الكلية الهامة قد استعارها بعضُ المفكرين والكتّاب العرب والايرانيين منهم، على اختلاف في طبيعة ما هو مستعارٌ ايرانياً وعربياً، كلٌّ حسب رؤيته وأحكامه المسبقة وسياقات اجتماعه الديني.

وأضحت تلك المقولات والمفاهيم فيما بعد منهلاً لإلهام بعض الأدبيات الدينية المختلفة، تبعاً للاختلاف والتنوع في التفكير الديني لعالم الاسلام في شبه القارة الهندية. الاحيائيون من السلفيين والأصوليين استعاروا ما يسوغ ويكرّس أفكارهم في الدعوة، في حين استعار الاصلاحيون والمجددون ما يفتقدونه في محيطهم، ما شكّل أفقاً لبناء رؤيتهم في التوحيد والوحي والنبوة.

وكان ولي الله الدهلوي الذي يسميه بعض الباحثين مجدّد القرن الثاني عشر الهجري «الثامن عشر الميلادي»، يمتلك رؤية تتسع لعبور أسوار التراث، وتحاول أن تعيد قراءة القرآن والحديث في ضوء الأفق التاريخي لعصر البعثة، إذ أزاح شيئاً من ركام التفاسير المكررة والشروح التي سترت احكام القرآن وغيبت المقاصد الكلية للرسالة الإسلامية، وحاول أن يرى النص القرآني بلا وسائط تحجبه.

ولقد ظهر التصوف عند ولي الله الدهلوي في الوقت الذي كان فيه المشرق الإسلامي في سبات عميق، فقد كان له دور بارزًا في الهند، فاعتبره العلماء من مجددي الدين في الهند خاصة، وأثنى عليه بعض العلماء ثناء يليق به، فكان لزاما علينا نحن طلاب العلم أن ندرس فكره الصوفي لنرى هل حقا الإمام ولي الله الدهلوي كان يسير على نهج أهل السنة؟ أم أن له شطحات صوفية وعقائد خالفهم فيها؟

إن هذه الدراسة تعرض آراء ولي الله الدهلوي " الصوفية " وتناقشها في ضوء مذهب أهل السنة (الأشاعرة والماتريدية)، مع ذكر ترجمة له؛ بهدف إظهار حقيقة ما يذهب إليه ولي الله الدهلوي الصوفي الذي نال قبول عند الصوفية، واعترف بفضله أهل السنة، وطعن فيه آخرون،

وتبين هل كان للتصوف دور في نشر الإسلام في الهند أم لا؟

أهمية الموضوع وسبب اختياره:

١. إنه من المقطوع به أن التصوف متواجد على الساحة الإسلامية بصورة لا يمكن إنكارها؛ لذا يجب علينا دراسة رجال التصوف الذين أثروا فيه وتأثروا به.
٢. تبرز أهمية دراسة هذا الموضوع في أن ولي الله الدهلوي لم يكن صوفيًا عاديًا؛ ففي الوسط الصوفي كان إمامًا لطريقتهم وسيدًا طائفتهم، وفي وسط أهل السنة نال تقدير واحترام كثير منهم.
٣. إن هذه الشخصية يُحاط بها غموض من جانب كثير من الناس بسبب ما نُسب إليه من أقوال وأفعال متناقضة، ظاهر بعضها المخالفة الصريحة للدين، وظاهر بعضها الآخر الإتباع لشريعة سيد المرسلين، فكان لابد من معرفة إلى أيهما كان ينتمي، إلى الإتباع أم إلى المخالفة؟
٤. إنه على الرغم من هذه المكانة التي احتلها ولي الله الدهلوي إلا أن آراؤه الصوفية لم تحظَ بدراسة مستقلة على حسب علمي.

منهج البحث:

يتلخص منهج البحث فيما يأتي:

اقتضت طبيعة البحث استخدام عدة

مناهج وهذا مما لا غنى للباحث عنه:

١. المنهج الوصفي: من خلال وصف عصر الإمام ولى الله الدهلوي، والمنهج الوصفي هو القائم على جمع البيانات والمعلومات ووصفها والتعبير عنها دون التدخل فيها بنقد أو غيره.
٢. المنهج الاستقرائي: من خلال القراءة في كتابات ولي الله الدهلوي، وما كُتب عنه ما أمكنني جمع ذلك.
٣. المنهج التاريخي: من خلال سرد بعض الأحداث التاريخية المرتبطة بعصر ولي الله الدهلوي.
٤. المنهج النقدي: القائم على نقد الآراء المخالفة للقرآن والسنة والعقل عند ولي الله الدهلوي، وحاولت أن لا أدع العاطفة تتحكم في نقدي لأي فكرة أو اتجاه معين.

خطة البحث: يشتمل البحث على :.

اولاً. المقدمة تشتمل على:

١. أهمية الموضوع .

٣. منهج البحث.

ثانيا. نبذة عن ولي الله الدهلوي وعصره:.

. حياة ولي الله الدهلوي.

. عصر ولي الله الدهلوي.

ثالثًا. موقفة من قضايا التصوف.

. حقيقة الإنسان عند الدهلوي.

. الطريق الصوفي عند الدهلوي ويشتمل على:

أ. التخلية.

ب . التحلية.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذا البحث.

ثانيا. نبذة عن ولي الله الدهلوي وعصره:

أ. حياة ولي الله الدهلوي وعصره:

يعد مفكرنا الإمام الدهلوي واحدًا من أكبر الشخصيات العلمية التي ساهمت في إثراء الحالة الدينية والعلمية والسياسية في الهند لزمن طويل، وتركت أثارا هامة ومؤلفات غزيرة ملأت المكتبات الإسلامية في الهند.

أولاً: اسمه ونسبه:

الشيخ الإمام الهمام: حجة الله بين الأنام إمام، الأئمة قدوة الأمة، علامة العلماء وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، محي السنة، وعظمت به لله علينا المنة، شيخ الإسلام قطب الدين[1]، أبو الفياض[2] أحمد، المعروف بشاه ولى الله ابن الشاه عبد الرحيم ابن الشيخ الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور بن أحمد بن محمود بن قوام الدين، المعروف بالقاضي قارون ابن القاضي قاسم ابن القاضي كبير المعروف بالقاضي بده بن عبد الملك بن قطب الدين بن كمال الدين بن شمس الدين المفتي بن شيرملك بن محمد عطا ملك بن أبى الفتح ملك بن عمر حاكم ملك بن عادل ملك بن فاروق بن جرجيس بن أحمد بن محمد بن شهريار بن عثمان بن هامان بن همايون بن قريش بن سليمان بن عفان بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين[3]، وينتهي نسبه من جهة أمه إلى الإمام موسى الكاظم ﷺ[4].

---

(1) عبد الحي بن فخر الدين الحسيني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ(نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، دار ابن حزم، ط١، بيروت١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٨٥٨/٦.

(2) وفاء العمري: الدهلوي وآراؤه الكلامية والفلسفية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٩م، صـ١٣.

(3) انظر في ذلك: محمد بشير السيالكوتي: ولى الله الدهلوي حياته ودعوته، دار ابن حزم، بيروت١٩٩٩، صـ ٢٠.

- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، ٢٧٢/١.

- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، بيروت: ٢٠٠٢م، ١٤٩/١.

. إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، إسطنبول، ١٩٠١م، ١٧٧/١.

(4) مُوسى الكاظِم (١٢٨ – ١٨٣ هـ = ٧٤٥ – ٧٩٩ م): هو موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، أبو الحسن: سابع الأئمة الاثني عشر، عند الإمامية، كان من سادات بني هاشم، ومن أعبد أهل زمانه، وأحد كبار العلماء الأجواد. ولد في الأبواء (قرب المدينة) وسكن المدينة، فأقدمه المهدي العباسي إلى بغداد، ثم رده إلى المدينة. وبلغ الرشيد أن الناس يبايعون للكاظم فيها، فلما حج مر بها سنة ١٧٩ هـ فاحتمله معه إلى البصرة وحبسه عند واليها عيسى ابن جعفر، سنة واحدة، ثم نقله إلى بغداد فتوفي فيها سجينا، وقيل: قتل، وكان على زيّ الأعراب، مائلا إلى السواد. وفي فرق الشيعة فرقة

ثانيًا: ولادته:

ولد صباح يوم الأربعاء عند طلوع الشمس في ٤ شوال عام (١١١٤هـ/١٧٠٢م) في أخواله قرية (فلت[٥]) في مديرية مظفر نكر، وأرخت ولادته بـ(عظيم الدين)، وقد كان والده الشيخ عبد الرحيم عند ولادته في الستين من عمره، وقد سبقت ولادة هذا الابن المبارك كثير من المبشرات.

وكان الشاه ولى الله الدهلوي قرشي النسب، ونسبه يمتد ليصل إلى الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ومن ثَّم فإن أجداد الشاه ولى الله الدهلوي أصلهم كان عربيا من قريش، «وتدل روايات المؤرخين أن أسرة الإمام ولى الله الدهلوي كانت ذات مكانة مرموقة، وعراقة في النسب والأمجاد، وتميز بالعلم والتقوى، وقد قدر له أن يعيش في أسرة من أفضل الأسر التي كانت تقطن الهند، ولم تكن أسرته في أصلها هندية، ولكنها أسرة وفدت على الهند في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري، حين كانت حملات التتار تدمر العالم الإسلامي وتنتهك حرمات الأسر والبيوتات الإسلامية، وتبدد خزائنهم العلمية، وتحول المدن الشهيرة إلى خراب»[٦]، وفى تلك الآونة توجهت بعض الأسر الكبيرة إلى الهند، وكان من بين تلك الأسر أسرة الإمام ولى الله الدهلوي.

وفاته:

توفى ولى الله الدهلوي ظهيرة يوم السبت في ٢٩ محرم الحرام ١١٧٩هـ الموافق ٢١ أغسطس عام ١٧٦٢م، بمدينة دلهى[٧] وله ٦٢ سنة [٨].

تقول: إنه (القائم المهدي) وفرقة أخرى تسمى (الواقفة) تقول: إن الله رفعه إليه وسوف يردّه. وسميت بذلك لأنها وقفت عنده ولم تأتم بإمام بعده. انظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط١، بيروت١٩٩٤م، ٣٠٨/٥.
ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: د/بشار عوّاد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس ٢٠٠٣ م، ٩٨٤/٤-٩٨٦، . الزركلي: الأعلام ٣٢١/٧، ٣٢٢

(٥) هي قرية صغيرة من قرى شبه القارة الهندية، بديرية مظفر نكر، القريبة من دهلى، وقد كانت معروفة بعلمائها،
ـ أنظر : محمد بشير السيالكوتي: ولى الله الدهلوي حياته ودعوته، صـ٢٥.

(٦) أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت١٩٩٩م، ٨٢٠/٤.

(٧) دهلي بلدة بالهند تقع على نهر يمنا، وكانت دار الملك، وقاعدة بلاد الهند، وهي عاصمة الهند، وسماها الفرس ومن ثمَّ العرب دهلى، ولكنها تعرف الآن كما سماها الإنجليز – دلهى –.
ـ أنظر: أحمد بن على بن عبد القادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت١٤١٨هـ،٣٥٥/٢.

(٨) انظر: أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة ٨٥٨/٤.
. وفاء العمري: الدهلوي وآراؤه الكلامية والفلسفية صـ٣٥.

«ودفن الإمام الدهلوي في جانب اليسار من «دهلى دروازه» (باب دلهى) بالحي الذي يسمى «مهند يان»، ولقد كان مكان المقبرة – يوماً – رباط الشيخ عبد العزيز شكريار أحد أجداد الشيخ عبد الرحيم لأمه، كما كانت بيوت أسرة الإمام الدهلوي أيضاً به، وتوجد في هذه المقبرة قبور أبناء الإمام الدهلوي الأربعة، وقبر والده الشيخ عبد الرحيم أيضاً، وقد علقت عليها اللوحات التي كتبت فيها أسماؤهم وتواريخ وفياتهم، غفر لهم الله ورحمهم أجمعين»[٩].

عصر الإمام ولى الله الدهلوي

تمهيد:

من المعلوم أننا إذا أردنا أن نتعرف على شخصية علمية كشخصية ولي الله الدهلوي، لابد أن نتعرف على العوامل التي اثرت في تكوين هذه الشخصية التي لمعت في نجوم سماء العلماء، لذا كان لزامًا علينا قبل أن ندرس فكره الصوفي أن نتعرف على العصر الذي عاش فيه؛ لأنه لا يمكن أن نُقدم على دراسة هذه الشخصية إلا إذا عرضنا إطلالةً على العصر الذي واكبه وعاش في ظلاله متأثرًا به ومؤثرًا فيه.

أولاً: الناحية السياسية:

عاش ولى الله الدهلوي في القرن الثاني عشر الهجري مع بداية القرن الثامن عشر الميلادي، وكان عصراً حافلاً بالصراعات السياسية، وكانت حالة البلاد في تلك الفترة من التاريخ سيئة إلى درجة كبيرة، وفى تقديري أن الإمام ولى الله الدهلوي «شب والإمبراطورية في أوج مجدها، لكنه شهد بداية نهايتها، وفى زمنه نجح الإنجليز في إقامة شركة الهند الشرقية سنة ١٧٦٣م»[١٠].

وقد صور المؤلف الأمريكي د/ لوثروب استوراد الحالة العامة في العالم الإسلامي في ذلك القرن فقال: «كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ومن التدني والانحطاط أعمق دركة، فأربد جوه، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي، واستغرقت الأمم الإسلامية في اتباع الأهواء، والشهوات، وماتت الفضيلة في الناس، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد، وفوضى، واغتيال؛ فكثر السلب والنهب، وفُقد الأمن»[١١].

وحينما ندقق النظر في كلام «لوثروب» نجد أنه بالغ في وصف حالة العالم الإسلامي؛ لأنه عالم أمريكي، والغرب دائمًا يسعى لتشوية صورة المسلمين، (وإن كان البعض منه قد انصفه)

---

[٩] أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة ٨٥٨/٤، ٨٥٩ بتصرف واختصار.

[١٠] ولى الله الدهلوي: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، راجعه وعلق عليه: عبد الفتاح أبو غدة، دار النفائس، ط٣، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ٨/٣.

[١١] لوثروب استوراد: حاضر العالم الإسلامي، تحقيق: شكيب أرسلان، ترجمة: عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م، صـ ١٥٥.

فنحن لا ننكر أن الأوضاع السياسية كانت مؤلمة في ذلك الوقت؛ إلا أن الفضيلة والأخلاق لا يمكن أن تموت في أمة محمد ﷺ ، ولابد من وجود فئة على الحق والهدى، كما قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»(١٢).

ثانيًا: الناحية الدينية والعلمية:

السبب في دراسة الحياة الدينية والعلمية في تلك الفترة؛ لأنها مرتبطة بحياة الإمام الدهلوي، وكان لها الأثر في تنمية أفكاره وعلومه للوصول إلى الصحيح من الدين؛ لا سيما في هذه الفترة التي ساد فيها الجمود الفكري. حيث يصف أحد الباحثين هذه الفترة قائلًا: «إن العالم الإسلامي بصفة خاصه وشبه القارة الهندية على الخصوص قد ابتعدوا عن التفكير الإسلامي الصحيح، وسيطر على العلماء والفقهاء في تلك الفترة الجمود الفكري والاكتفاء بالموروث العلمي القديم، وعدم التجديد في البحث العلمي الديني والتجريبي على حد سواء»(١٣).

«ولم يكن للشعب اتصال مباشر بالكتاب والسنة، وقد حال العلماء بينه وبين دراسة القرآن وفهمه، بحجة صعوبة فهمه بالنسبة للعامة وخوف انحلال سلطتهم الروحية وسيادتهم العلمية. يضاف إلى ذلك كله أن ثقافة علماء الهند ضعيفة وضئيلة في العلوم الدينية، وبضاعتهم مزجاة خصوصاً في الحديث»(١٤).

وأما عن سير الحالة العلمية في الفترة التي عاش فيها ولي الله الدهلوي فقد تأثرت بالأوضاع السياسية والدينية ولم يكن الانهيار في الحالة العلمية وليد القرن الثاني عشر الهجري بل بدأ الانهيار منذ القرن السابع الهجري بعد هجمات التتار على مقر الخلافة الإسلامية في بغداد، وتدمير مكتبتها.

ولقد زاد الأمر سوءًا في القرن الثاني عشر الهجري؛ حيث ظهر التخلف بأقاليم العالم الإسلامي، وتقلصت مراكز التعليم الديني فغاب العلم وفشا الجهل بين الناس، وضعفت الصلات العلمية والثقافية بين حواضر العالم الإسلامي.

ثالثًا: الناحية الاجتماعية:

ليس من المعقول أن يوجد في الهند في تلك الفترة العصيبة حياة اجتماعية طيبة يسعد

(١٢) أخرجه: مسلم في صحيحه كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» ٣/١٥٢٣، ح رقم ١٩٢٠.

مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ، تحقيق: أ/محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت.

(١٣) أبو الأعلى المودودي: موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه (واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم)، دار الفكر الحديث، بيروت١٩٦٧م، صـ ١٠٧.

(١٤) ولى الله الدهلوي: حجة الله البالغة ١/١٢.

المسلمون في ظلها، بعدما تقدم من سوء الحياة السياسية، وما حدث من فوضى واضطراب وتنافر وشقاق بين الحكام المسلمين على العرش، «فأصبحت السياسة هزلاً والدولة ألعوبة، وانغمس أكثر الملوك والأمراء في اللهو واللعب وأولعوا بالتمتع بالرقص والغناء»[١٥].

وبالجملة: فإن الهند في القرن الثاني عشر الهجري كانت قد تردت إلى الحضيض من الناحية الاجتماعية، ووصلت آخر نقطة من الانحطاط والانهيار.

وتعد تلك الفترة التاريخية من الفترات المحرجة في حياة المسلمين الاجتماعية في شبه القارة الهندية، وعلى هذا الأساس يمكن القول إن التقدم الحضاري والارتقاء الثقافي في أي قطر إسلامي يرتبط ارتباطاً تاماً بالحالة الاجتماعية.

ثالثًا. موقفة من قضايا التصوف.

. حقيقة الإنسان عند الدهلوي.

في تعريف الدهلوي للإنسان جعل مدخل الدراسة اختصاص الإنسان بتعريف خاص يميزه عن سائر المخلوقات مع اشتراكه معها في بعض الصفات – كالطول وعظم القامة – فإن كانت السعادة هذه فالجبال أتم سعادة، وصفات يشارك فيها النبات كالنمو المناسب والجمال، فإن كانت السعادة هذه فالورود أتم سعادة وصفات يشارك فيها الحيوان كشدة البطش وجهورية الصوت، وكثرة الأكل والشرب ووفور الغضب والحسد، فإن كانت السعادة هذه فالحمار أتم سعادة.

إن ولي الله الدهلوي لا يفرق بين الإنسان والحيوان إلا في قدرة الإنسان على التعلم كذلك فإن التدبيرات والصنائع لا ينفرد بها الإنسان لأن بعض الحيوانات تنفرد «فالشجاعة وحب الانتقام والثبات في الشدائد والإقدام على المهالك، وهذه كلها متوفرة في الفحول من البهائم، وكذلك أصل الصناعات موجود في الحيوان كالعصفور الذي ينسج العش، بل رب صنعة يصنعها الحيوان بطبيعته لا يتمكن منها الإنسان بتجشم»[١٦].

والدهلوي يقسم عقل الإنسان إلى ثلاثة أقسام. العقل المعاشي، والعقل المعادي، والعقل الإلهي فيقول: «وأعلم أن للعبد عقلاً يتصرف به في معاشه، وعقلا يتصرف به في معاده من الخوف والتوكل والتسليم والحث على أعمال الخير، وعقلاً يتصرف به في ذات الله تعالى لا غير فاعرف أن كل هذه الدرجات ممتازة عن الأخرى فهذه المعرفة مفتاح الجمعية إن شاء الله تعالى»[١٧].

يتضح من كلام الدهلوي عن تقسيم العقول أن العقول تترقى من مرتبة إلى أخرى، فالعقل المعاشي الذي يذكره الدهلوي هو أقل العقول فهو غريق في بحر الهوى لا يسعى إلا في شهوات نفسه، ثم قد يرتقي هذا العقل بكثرة الذكر وتعلمه

---

[١٥] محمد بشير السيالكوتى: ولى الله الدهلوي صـ ١٣بتصرف يسير.

[١٦] الدهلوي: حجة الله البالغة ١٠٢/١.

[١٧] ولي الله الدهلوي: التفهيمات الإلهية ٨٨/٢.

عن الله تعالى إلى ان يفكر في اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب فيخاف من الله ويعبده حق العبادة كل هذا مقبول من كلام الدهلوي.

وأما أن يجعل من أقسام العقل. عقل يفكر في ذات الله تعالى فهذا الأمر لا يجيزه العقل أبدا؛ لأنه لا يجوز للإنسان مهما بلغت منزلته أن يفكر في ذات الله تعالى، فإن الله تعالى أخبرنا بكثير من أخبار خلقه لمخلوقاته، وعلى المسلم أن يتتبع ما ثبت في النصوص من الحديث عن الله تعالى، وأن يتفكر فيما خلق الله تعالى ومظاهر قدرته وحكمته وحسن تدبيره لخلقه، ويترك التكلف فيما يتعلق بالله مما لم يأت فيه نص، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التفكر في ذات الله تعالى، وأمر بالتفكر في آياته، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله»[١٨].

والدهلوي متأثر كثيرًا بفكر ابن عربي في حقيقة الإنسان فابن عربي يرى أن الإنسان نوعان: إنسان كامل، وإنسان حيوان، فالإنسان الكامل هو الذي يحصل له المعرفة، وهو المظهر الخارجي وهو التجلي الإلهي فيقول: «فإن الله لما أحب أن يُعرف، لم يكن أن يعرفه إلَّا من هو على صورته، وما أوجد الله على صورته أحدًا، إلَّا الإنسان الكامل لا الإنسان الحيوان، فإذا حصل المعرفة المطلوبة، فأوجد لظهور عين الإنسان الكامل، لا الإنسان الحيوان»[١٩].

ثم يذكر الدهلوي أن الله عز وجل أودع في الإنسان قوتين فيقول: «ثم تعلم أن الله تعالى قد أودع الإنسان بحكمته الباهرة قوتين: قوة ملكية تتشعب من فيض الروح المخصوصة بالإنسان على الروح الطبيعية السارية في البدن وقبولها ذلك الفيض وانقهارها له، وقوة بهيمية تتشعب من النفس الحيوانية المشترك فيها كل حيوان المتشبحة بالقوى القائمة بالروح الطبيعية واستقلالها بنفسها وإذعان الروح الإنسانية لها وقبولها الحكم منها، ثم تعلم أن بين القوتين تزاحما وتجاذبا، فهذه تجذب إلى العلو دون تلك إلى»[٢٠].

يمكن أن نستخلص من كلام الدهلوي. أن الإنسان مكون من جوهرين (روح وجسد)، غير أنه اهتم ببناء روح الإنسان اكثر من جسده، وعنده أن الإنسان كيان ووجود قابل لأن يُصطنع ويُبنى لبنة لبنة، وجزءًا جزءًا. وكما ينمو جسده ذاتياً فإن روحه قابلة للسمو إن هو تعهدها بالرعاية والسقاية شأنها شأن الجسد، سواء بسواء. كما أن محور عملية البناء في الوجود بأكمله هو الإنسان، والإنسان في حاجه إلى

---

[١٨] أخرجه: أبِي الشيخ الأصبهاني في العظمة ٢١٠/١، ح رقم ١، وحسنه الألباني في الجامع ٥٧٢/١.

[١٩] ابن عربي: الفتوحات المكية، دار الكتاب العربي، بيروت د.ت، ٢٦٦/٢.

[٢٠] المصدر السابق ٥٣/١.

دوافع ملائكية كي يستطيع أن يرتقي من النفس البهيمية إلى النفس الملكية، فالإنسان، عند الدهلوي كائن متميزا عن سائر الكائنات، من حيث خلقه وتكوينه، ومن حيث سر وجوده في الأرض لذا ينبغي عليه أن يرتقي بنفسه من النفس البهيمة إلى النفس الكلية المتشبعة بالإيمان والمعرفة.

إن الدهلوي متأثر بالفلسفة اليونانية في علاقة النفس بالهيولي، فعنده أن النفس هي صورة فائضه على الهيولي فيقول: «النفس هي الصورة الشخصية الفائضة على الهيولي من الأسماء والعين هي قانون النفس على هيئتها ووزانها يخلق النفس في عالم التخطيط ولم يدرك العامة إلاَّ أعيان الأنواع»[٢١].

وبهذا ينظر ولي الله الدهلوي إلى النفس بحكم ميولة الصوفية، على أنه لابد من تخليصها من كل ما يحوم حولها من الأمور المادية العالقة في الدنيا لتستطيع أن تصل هذه النفوس التي تخلصت من ماديات الدنيا وعاشت الحياة الروحية إلى الله تعالى. من أجل ذلك اهتم ولي الله الدهلوي بالنفس أكثر من اهتمامه بالجسد؛ لأن النفس الناطقة هي التي يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات.

ويقسم ولي الله الدهلوي قوي النفس إلى قسمين:

١. قوة ملكية: فيقول: «ثم تعلم أن الله تعالى قد أودع الإنسان بحكمته الباهرة قوتين: قوة ملكية تتشعب من فيض الروح المخصوصة بالإنسان على الروح الطبيعية السارية في البدن وقبولها ذلك الفيض وانقهارها له»[٢٢].

ومن خلال هذه النفس يكون الإنسان مهيًا لنزول العلم عليه فيقول: «أو يكون نفسه قد جبلت فيها قوة ملكية، فيكون مهيئا لنزول علوم من الملأ الأعلى»[٢٣].

٢. قوة بهيمية: فيقول: «قوة بهيمية تتشعب من النفس الحيوانية المشترك فيها كل حيوان المتشبحة بالقوى القائمة بالروح الطبيعية واستقلالها بنفسها وإذعان الروح الإنسانية لها وقبولها الحكم منها»[٢٤].

من خلال ما سبق يتبين أنّ كمال الإنسان عند الدهلوي يتمثل في انقياد الجانب الجسدي البهيمي منه للجانب الروحي العقلي، بحيث يصبح هذا الأخير هو المسيطر على كل أحوال الإنسان وتصرفاته، فلا يعمل شيئا، إلاّ وهو قائده فيه، فهذا هو كماله النوعي، وحقيقة سعادته التي يطلبها العقلاء. أو بعبارة أكثر إيجازًا: أنّ كمال الإنسان هو كماله الروحي.

وغاية الإنسان عند الدهلوي أن يصل إلى معرفة الله تعالى، ولعل هذه هي غاية جميع اهل التصوف، ولكن كيف يصل الإنسان إلى هذه المعرفة من وجهة نظر الدهلوي؟.

---

[٢١] ولي الله الدهلوي: التفهيمات الإلهية ٢/ ١٦٧.

[٢٢] الدهلوي: التفهيمات الإلهية ١/ ٥٤.

[٢٣] المصدر السابق ١/ ١٨٥.

[٢٤] المصدر السابق ١/ ٥٤.

المعرفة التي يريد ولي الله الدهلوي المريد أن يصل إليها. هي معرفة مباشرة بغير وسائط من مقدمات أو قضايا أو براهين، إنها معرفة فوق عقلية لا يحوزها إلا من سلك سبيل التصوف وأُلهم المعرفة المباشرة ومن هنا أيضاً تسمى المعرفة كشفاً، وهذه المعرفة لا تأتي إلا بالمجاهدة والرياضات الشاقة التي يفعلها المريد حتى يتجلى عليه الله تعالى بالمعرفة.

ولذلك نرى أن ولي الله الدهلوي يعترض على الذين يقولون أن طريق معرفة الله تعالى هو النظر والاستدلال، ولكن طريق المعرفة عنده هو إلهام باطني فيقول: «وينقدح هنا مقدمتان جليلتان أن طريق النظر والاستدلال بدعة ابتدعها مخدجوا الخلقة ... إنما هو بإلهام باطني مزاجي لا كما زعمه أهل الكلام»[٢٥].

٠الطريق الصوفي عند ولي الله الدهلوي.

التربية الصوفية تدور حول توجه المسلم بكل طاقاته وإمكانياته وارتباطه بالكون بما فيه من خصائص وأسرار، وكذلك حول علاقة المسلم بربه وخالقه، فالمسلم يحتاج إلى تلك التربية التي تقوم على العمل الصالح، وتقوي فيه الجانب الروحي حتى يقوى على كبح جماح شهواته وملذاته فيفسح المجال للفكر أن ينطلق عبر مجالاته التي رسمها الله له.

إذن الحياة التي يحياها الصوفي هي حياة المجاهدات والصبر وتعويد النفس وترويضها، وهي حياة التخلية من الأدران إلى التحلية بالمعاني الروحية الجميلة، واكتساب الصفات الحميدة.

وبحسب المبدأ الصوفي فإنّ الأولى التخلي عن المعصية لأنها تخلف في النفس الشرور، واعتيادها يترك في القلب قساوة فيأتي المرء على الطاعة لا يستشعر أثرها ولا يشعر بلذّتها، فمزاحمة المعصية في قلبه تُذهب كلّ جميل.

٠التخلية:

إن من أهم السلوكيات الصوفية هما: التخلية (أي تطهير النفس من رذائلها)، والتحلية (أي ملء النفس بالأخلاق الفاضلة)[٢٦].

ولمَّا كانت النفوس والقلوب عرضة للتغير وعدم الثبات وَورود الفتن عليها؛ فقد منحنا الله فرصة للتوبة والاستغفار، والأوبة والندم، والتجديد والإصلاح، فيحتاج الإنسان دائمًا للتذكرة من حين لآخر حتى يرتقي بنفسه وينقيها من آفات العصيان؛ لتتحول من نفس أمارة بالسوء، إلى نفس لوامة على التقصير، ثم تكون نفساً مطمئنة مطيعة لله منقادة لأوامره، وذلك بفضل الله أولاً، ثم بالمجاهدة والتخلية التي تتبعها التحلية.

إن ولي الله الدهلوي يرى أن معظم الحُجب التي تخلي بين الإنسان وربه ثلاثة فيقول: «اعلم أن معظم الحجب ثلاثة: حجاب الطبع، وحجاب الرسم، وحجاب سوء المعرفة، وذلك لأنه ركب

[٢٥] الدهلوي: الخير الكثير صـ٥٤.

[٢٦] الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق: د/عبد الحليم محمود، القاهرة: دار الكتب الحديثة، د.ت صـ٣٢

في الإنسان دواعي الأكل والشرب والنكاح، وجعل قلبه مطية للأحوال الطبيعية كالحزن والنشاط والغضب والوجل وغيرها، فلا يزال مشغولاً بها، إذ كل حالة يتقدمها توجه النفس إلى أسبابها وانقياد القوى العلمية لما يناسبها، ويجتمع معها استغراق النفس فيها وذهولها عما سواها، ويتخلف عنها بقية ظلها ووضر لونها، فتمر الأيام والليالي، وهو على ذلك لا يتفرغ لتحصيل غيرها من الكمال»[٢٧].

إن الدهلوي يرى أن الإنسان جُبل على احتياجات الجسد من مأكل ومشرب، يقول أحد الباحثين: «لقد ربط ولي الله الدهلوي بين مبحث الحجب ومبحث النفس والعقل في اعتقاده أن فساد العلم وسوء المعرفة من الحجب المانعة لظهور الفطرة»[٢٨].

وطبيعة النّفس الإنسانيّة تنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ وهي: النّفس الأمّارة بالسوء، والنفس اللوّامة، والنفس المطمئنّة، ويمكن أن تجتمع هذه الأقسام في النّفس البشريّة في اليوم الواحد، فتكون في فترةٍ من اليوم مطمئنةً وتصبح بعد قليلٍ أمّارةً بالسّوء، فيُحكم على طبيعة النفس في صفاتها الغالبة من خلال طبع صاحبها وتصرّفاته، والمطلوب من المسلم مجاهدة نفسه وتدريبها حتى تُصبح نفساً مطمئنةً. ولعل هذا ما عناه ولي الله الدهلوي بحجاب النفس.

إن ولي الله الدهلوي يريد من الإنسان أن يجاهد نفسه حتى تتحرر عن حجاب النفس وترتقي بذلك إلى ما خلقت لأجله فيقول: «ورب إنسان ارتطمت قدماه في هذا الوحل، فلم يخرج منه طول عمره، ورب إنسان غلب عليه حكم الطبع، فخلع رقبته عن رقبة الرسم والعقل، ولم ينزجر بالملامة، وهذا الحجاب يسمى بالنفس، لكن من تم عقله، وتوفر تيقظه يختطف من أوقاته فرصا يركد فيها أحوال الطبيعة، ويتسع نفسه لهذه الأحوال وغيرها»[٢٩].

يقول ولي الله الدهلوي عن خطورة النفس وأنه يجب مجاهدتها: واعلم أن النفس مجبولة على اتباع الشهوات، لا تزال على ذلك إلا أن يبهرها نور الإيمان، وهو قول يوسف عليه السلام قال تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [يوسف: ٥٣].

فلا يزال المؤمن طول عمره في مجاهدة نفسه باستنزال نور الله، فكلما هاجت داعية نفسية لجأ إلى الله، وتذكر جلال الله وعظمته، وما أعد للمطيعين من الثواب وللعصاة من العذاب، فانقدح من قلبه وعقله خاطر حتى يدمغ خاطر الباطل، فيصير كأن لم يكن شيئا مذكورا[٣٠].

لقد عرض الدهلوي الداء الذي يحجب النفس الإنسانية عن معرفة الله تعالى. ثمَّ وضع الدواء

---

[٢٧] ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة ١/ ١١١.

[٢٨] وفاء العمري: الدهلوي وآراؤه الكلامية والفلسفية صـ ٤٧٩.

[٢٩] ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة ١/١١١.

[٣٠] ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة، ١٥٧/٢.

للتخلص من هذه الحجب فيقول في رفع حجاب الطبع: «اعلم أن تدبير حجاب الطبع شيآن: أحدهما يؤمر به، ويرغب فيه، ويحث عليه، والثاني يضرب عليه من فوقه، ويؤاخذ به، أن شاء أم أبى.

فالأول: رياضات تضعف البهيمية كالصوم والسهر، ومن الناس من أفرط، واختار تغيير خلق الله مثل قطع آلات التناسل، وجفيف عضو شريف كاليد والرجل، وأولئك جهال العباد، وخير الأمور وسطها، وإنما الصوم والسهر بمنزلة دواء سمى يجب أن يتقدر بقدر ضروري.

والثاني: إقامة الإنكار على من اتبع الطبيعة، فخالف السنة الراشدة، وبيان طريق التفصي من كل غلبة طبيعية، وضرب سنة له، ولا ينبغي أن يضيق على الناس كل الضيق، ولا يكفي في الكل الإنكار القولي، بل لا بد من ضرب وجيع وغرامة منهكة في بعض الأمور، والأليق بذلك إفراطات فيها ضرر متعدد كالزنا والقتل»[٣١].

٠التحلية:

إن الأخلاق الصوفية تهدف إلى تهذيب النفس من أجل تحقيق السمو إلى مراتب الكمال الخُلقي عن طريق المجاهدة، فالتخلق بالصفات الحميدة يستوجب تنقية النفس من شوائبها، وتجريدها من رزائلها؛ لذلك فإن علماء الصوفية اهتموا بتجريد النفس من كل العوائق المانعة من وصول الإنسان إلى هذا السمو؛ لذلك فإن ابن عجيبة يقسم التجريد إلى ثلاثة أقسام فيقول: «التجريد على ثلاثة أقسام تجريد الظاهر فقط أو الباطن فقط أو هما معاً. تجريد الظاهر هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله وتجريد الباطن هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله وتجريدهما معا هو أفراد القلب والقالب لله»[٣٢].

يقول ابن القيم: «باب التجريد قال الله تعالى: {فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ}[طه: ١٢] التجريد: انخلاع عن شهود الشواهد، وهو على ثلاث درجات، الدرجة الأولى: تجريد عين الكشف عن كسب اليقين، والدرجة الثانية: تجريد عين الجمع عن درك العلم، والدرجة الثالثة: تجريد الخلاص من شهود التجريد»[٣٣].

ومعنى التفريد قال ابن القيم: «باب التفريد قال الله تعالى: {أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}[النور: ٢٥] التفريد: اسم لتخليص الإشارة إلى الحق، ثم بالحق، ثم عن الحق».

إن ابن القيم هنا جعل التفريد عين التجريد وجعله بعده، والفرق بينهما: أن التجريد انقطاع

---

(٣١) المصدر السابق ١/١١١.

(٣٢) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ، صـ٣٠، ٣١.

(٣٣) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٩٦م، ٣/ ٣٨٦.

عن الأغيار، والتفريد إفراد الحق بالإيثار، فالتفريد متعلق بالمعبود، والتجريد متعلق بالعبودية، وجعله ثلاث درجات: تخليص الإشارة إلى الحق، ثم به، ثم عنه، فهاهنا أمران، أحدهما: تخليص الإشارة، والثاني: متعلق الإشارة.

فأما تخليصها: فهو تجريدها مما يمازجها ويخالطها، وأما متعلقها، فثلاثة أمور: الإشارة إلى الحق، وبه، وعنه، فالإشارة إليه: غاية، والإشارة به: وجود، والإشارة عنه: إخبار وتبليغ، فمن خلصت إشارته إلى الحق كان من المخلصين، ومن كانت إشارته به فهو من الصادقين، ومن كانت إشارته عنه فهو من المبلغين، ومن اجتمعت له الثلاثة فهو من الأئمة العارفين، فالكمال أن تشير إليه به عنه، فتخليص الإشارة إليه هو حقيقة المتابعة، وذلك هو محض الصديقية، فمتى اجتمعت هذه الثلاثة في العبد، فقد خلعت عليه خلعة الصديقية، فما كل من أشار إلى الله أشار به، ولا كل من أشار به أشار عنه، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم الذين كملوا المراتب الثلاثة، فخلصت إشارتهم إلى الله وبه وعنه من كل شائبة[٣٤].

إن جوهر التصوف عند الدهلوي هو الخُلُق مع الله وذلك في إخلاص العبادة لله، وكثرة ذكر الله تعالى، واستيلاء هذا الذكر على جوارح الإنسان كلها وهذا ما يسميه بالتفريد فيقول: "«التفريد وهو أن يستولي الذكر على قواه الإدراكية حتى يصير كأنه يرى الله تعالى عيانا، فتضمحل أحاديث نفسه»، وينطفئ كثير من لهبها، قال صلى الله عليه وسلم: «سيروا، سبق المفردون، هم الذين وضع عنهم الذكر أثقالهم»[٣٥]، أقول: إذا خلص نور الذكر إلى عقولهم، وتشبح التطلع إلى الجبروت في نفوسهم انزجرت البهيمية، وانطفأ لهبها، وذهبت أثقالها»[٣٦].

ومقصد ولي الله الدهلوي أن الإنسان إذا انشغل بذكر الله تعالى، واستولى الذكر على قواه الإدراكية وتخلص من كل الشوائب البهيمية يخلص نور الذكر إلى العقل وتطلع إلى نور الله عز وجل.

وقول ولي الله الدهلوي «كأنه يرى الله تعالى عياناً» لم يقصد الدهلوي من وراء هذه الكلمة وحدة الشهود كما يقصدها بعض الصوفية، وإنما يقصد أن الإنسان إذا داوم على الرياضة والمجاهدة في الذكر والعبادة، لم يرى إلا الله عز وجل في كل شيء يحيط به، فيستحي أن يراه الله على معصية، وليس رؤية الله أنه يراه بذاته وإنما

---

[٣٤] ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣٨٩/٣.

[٣٥] أخرجه: مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى ٤٩٢٠٦٢، ح رقم ٢٦٧٦.

ولكن نص الحديث: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ».

[٣٦] ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة ١٤٤/٢.

يرى آثاره وقدرته، وهو المقصود بقول الصوفية غلبة كون الحق على كون العبد.

إن الدهلوي يرى أن من ثمرات الاحسان مقامات وأحوال تتعلق بالعقل والقلب والنفس، وهذه اللطائف موجوده كلها في الإنسان يقول: « اعلم أن للإحسان ثمرات تحصل بعد حصوله، وهي المقامات والأحوال، وشرح الأحاديث المتعلقة بهذا الباب يتوقف على تمهيد مقدمتين: الأولى: في إثبات العقل، والقلب، والنفس، وبيان حقائقها، والثانية: في بيان كيفية تولد المقامات والأحوال..»([٣٧]).

إن أول ما يتعلق بالقلب عند الدهلوي هو الجمع[٣٨]، ويقصد به الدهلوي أن يكون أمر الآخرة هو المقصود الذي يهتم به الإنسان، ويكون أمر الدنيا هينًا عنده لا يقصده ولا يلتفت إليه فيقول: « وأما المقامات المتعلقة في القلب فأولها الجمع، وهو أن يكون أمر الآخرة هو المقصود الذي يهتم به، ويكون أمر الدنيا هينا عنده لا يقصده، ولا يلتفت إليه إلا بالعرض من جهة أن يكون بالغة له إلى ما هو سبيله، والجمع هو الذي يسميه الصوفية في بالإرادة.

قال صلى الله عليه وسلم: "من جعل همه هما واحدا هم الآخرة كفاه الله همه، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية هلك ".

أقول: همة الإنسان لها خاصية مثل خاصية الدعاء في قرع باب الجود، بل هي مخ الدعاء وخلاصته، فإذا تجردت همته لمرضيات الحق كفاه الله تعالى، فإذا حصل جمع الهمة، وواظب على العبودية ظاهرا وباطنا أنتج ذلك في قلبه محبة الله ومحبة رسوله، ولا يزيد بالمحبة الإيمان بأن الله تعالى مالك الملك، وأن الرسول صادق مبعوث من قبله إلى الخلق فقط، بل هي حاله شبيهة بحالة الظمآن بالنسبة إلى الماء والجائع بالنسبة إلى الطعام، وتنشأ المحبة من امتلاء العقل بذكر الله والتفكر في جلاله وترشح نور الإيمان من العقل إلى القلب وتلقي القلب ذلك النور بقوة مجبولة فيه»([٣٩]).

إن الدهلوي هنا يبين أنه إذا حصل للسالك جمع الهمة بتجرده لمرضاة الله تعالى، ووافق ذلك العبادة ظاهرًا وباطنًا اثمر ذلك تعلقًا بالله تعالى فأصبح حياته كلها ذكرًا لله وهذا ما يسميه بالتفرد في ذكر الله تعالى.

إنه يسعى جاهدا إلى تخلية الإنسان من المعاصي التي يرتكبها، إلى تحليته بالأخلاق الحميدة التي تجلب له السعادة الحقيقية، ولعل هذا منهجه في الأخلاق، فنراه سعى إلي بيان ما

([٣٧]) ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة، ١٣٦/٢.

([٣٨]) الجمع باصطلاح الصوفية هو: " شهود الحق بلا خلق" وينشأ من اجتماع الهمم في التوجه إلى الله تعالى والاشتغال به عما سواه ويقابلها التفرقة وهو: " توزيع الخاطر للاشتغال بالخلق".

. أنظر: كمال الدين عبد الرازق . الكاشاني: اصطلاحات الصوفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٨١، صـ٤١ـ ٤٦.

([٣٩]) ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة، ١٤٨/٢.

يجلب الإنسان به السعادة لنفسه، فبين أن السعادة لا تكمن إلاَّ في التحلي بالأخلاق الحميدة، ثم بين ما هي الأشياء التي يحصل بها الإنسان السعادة، من خلال تحليه ببعض العبادات التي تساعده عن التخلي عن الرذائل والتحلي بالصفات الحميدة ومنها:

١. الطهارة:

ومقصدة من الطهارة هي طهارة النفس من الدنس، وتخليصها من النفس البهيمية لترتقي إلى أعلى الأخلاق فيقول: «وأصول الأخلاق المبحوث عنها في هذا الفن أربعة: – كما نبهنا على ذلك فيما سبق – الطهارة الكاسبة للتشبه بالملكوت، والإخبات الجالب للتطلع إلى الجبروت، وشرع للأول الوضوء والغسل، وللثاني الصلاة والأذكار والتلاوة، وإذا اجتمعتا سميناه سكينة ووسيلة، وهو قول حذيفة في عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنه أقربهم إلى الله وسيلة، وقد سماها الشارع إيمانا في قوله: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»[٤٠]، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حال الأول حيث قال: «إن الله نظيف يحب النظافة»[٤١]، وأشار إلى الثاني حيث قال: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٤٢]، والعمدة في تحصيلها التلبس بالنواميس المأثورة عن الأنبياء، مع ملاحظة وأرواحها أنوارها والإكثار منها، مع رعاية هيئاتها وأذكارها»[٤٣].

والدهلوي ينظر هنا إلى الطهارة على أنها لابد أن تكون حسية ومعنوية؛ لأن طهارة البدن هي الموصلة إلى طهارة النفس وراحتها، وحقيقتها أن الإنسان عند سلامة فطرته وصحة مزاجه وتفرغ قلبه من الأحوال السفلية (البهيمية) الشاغلة له عن التدبير إذا تلطخ بالنجاسات وما شابهها انقبضت نفسه وأصابه ضيق وخزي ووجد نفسه في غاشية عظيمة، فإذا ما اغتسل وتطهر ولبس أحسن ثيابه وتطيب اندفع عنه ذلك الانقباض ووجد مكانه انشراحًا وسرورًا وانبساطًا.

٢. الاخبات:

وحقيقته عنده: "أن الإنسان عند سلامته، وتفرغه، إذا ذُكِّر بآيات الله تعالى وصفاته وأمعن في التذكر، تنبهت النفس النطقية وخضعت

---

[٤٠] جزء من حديث، أخرجه: مسلم في صحيحه كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ٢٠٣/١، ح رقم ٢٢٣.

[٤١] جزء من حديث، أخرجه الترمذي في سننه أبواب الأدب، باب ما جاء في النظافة ١١١/٥، ح رقم ٢٧٩٩.

- سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،ط٢، القاهرة: ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

[٤٢] سبق تخريجه صـ٧٦.

[٤٣] الدهلوي: حجة الله البالغة ٢/ ١٠٥.

الحواس والجسد لها وصارت كالحائرة الكليلة ووجد ميلا إلى جانب القدس وكان كمثل الحالة التي تعتري السوقة بحضرة الملوك وملاحظة عجز أنفسهم واستبداد أولئك بالمنع والعطاء"[٤٤].

ثم جعل الاخبات إلى الله عز وجل من موجبات اكتساب الأخلاق ويتجلى هذا الاخبات في أن الإنسان عند سلامته وتفرغه إذا ذُكِّر بآيات الله تعالى وصفاته وأمعن في التذكر تنبهت النفس النطقية وخضعت الحواس والجسد لها، فتتهيأ النفس للتوجه نحو بارئها عز وجل وإيمانها في جلاله واستغراقها في تقديسه فيقول: «وحقيقته أن الإنسان عند سلامته وتفرغه إذا ذكر بآيات الله تعالى وصفاته، وأمعن في التذكر تنبهت النفس النطقية، وخضعت الحواس والجسد لها، وصارت كالحائرة الكليلة، ووجد ميلا إلى جانب القدس، وكان كمثل الحالة التي تعتري السوقة بحضرة الملوك، وملاحظة عجز أنفسهم، واستبداد أولئك بالمنع والعطاء، وهذه الحالة أقرب الحالات النسمية، وأشبهها بحال الملأ الأعلى في توجهها إلى بارئها، وهيمانها في جلاله، واستغراقها في تقديسه ولذلك كانت معدة لخروج النفس إلى كمالها العلمي أعني انتقاش المعرفة الإلهية في لوح ذهنها، واللحوق بتلك الحضرة بوجه من الوجوه وإن كانت العبارة تقصر عنه»[٤٥].

٣. السماحة:

وكذلك من موجبات التحلي بالأخلاق عنده (السماحة) ومقصده من ذلك أن تعلوا طبيعة النفس الملكية عن الانقياد إلى البهيمية بحيث تتوجه إلى الله تعالى توجهًا تاما، فتبتعد عن طلب اللذات وعن الغضب وعن فعل المنكرات، فتتعلق الروح دائمًا بالملأ الأعلى يقول الدهلوي: «وحقيقتها كون النفس بحيث لا تنقاد لدواعي القوة البهيمية، ولا يتشبح فيها نقوشها، ولا يلحق بها ضرر لوثها، وذلك لأن النفس إذا تصرفت في أمر معاشها، وتاقت للنساء، وعاسفت اللذات، أو قرمت لطعام فاجتهدت في تحصيله حتى استوفت منها حاجتها، وكذلك إذا غضبت أو شحت بشيء، فإنها لا بد في تلك الحالة تستغرق ساعة في هذه الكيفية لا ترفع إلى ما ورائها النظر ألبته، ثم إذا زايلت تلك الحالة، فإن كانت سمحة خرجت من تلك المضايق كأن لم تكن فيها قط، وإن كانت غير ذلك فإنها تشتبك معها تلك الكيفيات، وتتشبح كما تتشبح نقوش الخاتم في الشمعة فإذا فارقت الجسد، وتخففت عن العلائق الظلمانية المتراكمة، ورجعت إلى ما عندها لم تجد شيئا مما كان في الدنيا من مخلفات الملكية فحصل لها الأنس، وصارت في أرغد عيش»[٤٦].

وينظر ولي الله الدهلوي إلى السماحة على أنها قطع العلائق عن الدنيا، والتجرد عن نعيمها، وتعلق النفس بالملأ الأعلى ويكون ذلك

---

[٤٤] المصدر السابق: ١/١٠٥.

[٤٥] الدهلوي: حجة الله البالغة ١/١٠٧.

[٤٦] الدهلوي: حجة الله البالغة ١/ ١٠٧.

بإيثار ذكر الله تعالى على كل شيء فيقول: «وهو أن أصلها عدم انقياد النفس للهواجس البهيمية، والصوفية يسمونها بقطع التعلقات الدنيوية أو بالفناء عن الخسائس البشرية، أو بالحربة، فيعبرون عن تلك الخصلة بأسماء مختلفة، والعمدة في تحصيلها قلة الوقوع في مظان هذه الأشياء، وإيثار القلب ذكر الله تعالى وميل النفس إلى عالم التجرد، وهو قول زيد بن حارثة استوى عندي حجرها ومدرها إلى أن أخبر عن المكاشفة»[٤٧].

وهكذا، كان آراء ولي الله الدهلوي في التصوف مطبوع بطابع نفسي أخلاقي. ذلك أن بحثه في الأخلاق قام على أساس تحليل النفس الإنسانية لمعرفة الأخلاق الذميمة، ولإحلال الأخلاق المحمودة أي بلوغ الكمال الأخلاقي. فالنزعة الصوفية عند الدهلوي تقوم على أن التصوف علما بأحوال الجوارح وباطن بأعمال القلوب، وهذا لاعتماده على منهج الاستبطان الذي يقوم عليه وبه الزهد.

إن ولي الله الدهلوي ينظر إلى أن حقيقة التصوف هو المظهر الأخلاقي والروحي للإسلام، وهو الطريق الموصل إلى التقوى وتزكية النفس والسمو الأخلاقي والتحلي بالفضائل الروحية والأخلاقية.

ويركز الدهلوي على «التصوف العملي»[٤٨] الذي يقوم على تطهير الإنسان من خصال الشر للنفس الدنيا الموجودة بداخل كل منّا، ومن هذه الخصال: الجهل والكبر والحقد والحسد والغضب والكره، إلى جانب التحلي بالفضائل مثل المعرفة والتواضع والرضا والصبر والحب.

وفي الحقيقة إن ولي الله الدهلوي لم يذهب بعيداً في موضوع الأخلاق عن القرآن والسنة فالتصوف والأخلاق عنده نابعان من القرآن والسنة النبوية، فهما يمثلان الأساس للتصوف التطبيقي: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران: ٧٩] هكذا يأمرنا القرآن. ويقول تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: ٩]. وقال تعالى: {يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[الشعراء: ٨٧-٨٩]. وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة تدل على أهمية القلب: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»[٤٩]،

---

[٤٧] المصدر السابق: ١٠٧/٢.

[٤٨] التصوف العملي: هو الذي اتخذ به أصحابه وسيلة لتهذيب النفس وضبط الإرادة، والالتزام بالأخلاق الفاضلة، وهو تصوف تربوي يقوم على تربية النفس على التعلق بالله عز وجل يقول عنه ابن تيمية: «أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه».

. انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٨/١١.

[٤٩] جزء من حديث، أخرجه: البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه ٢٠/١، ح رقم

وليس المقصود بالموت في بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم هو مفارقة الحياة (الموت الإكلينيكي) وإنما يشير إلى حالة روحية لمن يغفلون عن ذكر الله، روى البخاري عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»(٥٠).

إن من مقاصد التصوف عند الدهلوي تأديب الإنسان وتربيته، بحيث يصبح متحليًا بالخصال الأربعة من الطهارة والاخبات والسماحة والعدل وغيره ممّا يدلّ على حالة غلبة الجانب العقلي الروحي على الجانب الجسدي البهيمي منه، وهي الحالة التي تمثّله فطرته وصورته النوعية، ومن ثمّ فتزويد الإنسان بهذه الخصال إيجادا وتكميلا، يعتبر تأكيدا لهذه الفطرة التي خلقه الله سبحانه عليها.

الخاتمة:

١. اتضح من خلال الرسالة أن ولي الله الدهلوي نشأ في أسرة علمية محافظة، فكان لهذه الأسرة دور في تنشئته الفكرية والعلمية، ونبوغه في سن مبكر دليل على فطنته وذكائه، واطلاعه عل كثير من الكتب وسع في مداركة وأفاق المعرفة عنده، ودراسته للمذاهب جعلته يحدد لنفسه منهجًا مميزًا يسير عليه ويرتضيه في حياته العلمية والفكرية والإصلاحية. ولقد نشأ ولي الله الدهلوي وتربى على المنهج الصوفي، فنشأ على تعاليم الطريقة النقشبندية، وحفظ القرآن في صغرة، ودرّس العلم في سن صغير، فشرب معظم العقائد الصوفية في ذلك الوقت، حتى أنه بعد رحلة إلى بلاد الحرمين استطاع أن ينقد بعض العقائد الصوفية ولكنه ما استطاع أن يتخلص كليا من الفكر الصوفي، فنجد أن ما ألفه بعد رحلة بلاد الحرمين لا يخلوا من المصطلحات الصوفية.

٢. اهتم ولي الله الدهلوي بالجانب الحسي في الأخلاق فجعل الطهارة هي باب الأخلاق، وبذلك نراه خالف الفلاسفة في ذلك فجمع بين الطهارة الجسمية الحسية والطهارة النفسية الروحية.

٣. اهتم ولي الله الدهلوي بالإنسان فجعله هو اساس فلسفته، لذا لم يهتم به من ناحية القوة الجسمية والصناعية، ولكنه اهتم به من الناحية العلمية والعقلية، لأن الإنسان عنده كائن مميز يختلف عن باقية الكائنات

٥٢.

(٥٠) أخرجه: البخاري في صحيحه كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل ٨٦/٨، ح رقم ٦٤٠٧.

الأخرى، من حيث سر وجوده في الدنيا.

فهرس المصادر والمراجع:

١. الدهلوي (أحمد عبد الرحيم):

- الانصاف في بيان أسباب الاختلاف، راجعة وعلق عليه عبد الفتاح أبو غدّة، بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣م.
- التفهيمات الإلهية، الهند: سلسلة مطبوعات المجلس العلمي سورت، ١٣٥٥هـ/١٩٣٤م.
- حجة الله البالغة، ج ١: ٢: ٣، تحقيق السيد سابق، دار الجيل، بيروت ٢٠٠٥م.

٢. ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٤م.

٣ـ ابن عربي (محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي الشهير بمحيي الدين بن عربي):

- الفتوحات المكية، دار الكتاب العربي، بيروت د.ت.

٤. ابن عجيبة (أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني):

- إيقاظ الهمم في شرح الحكم، تقديم ومراجعة: محمد أحمد حسب الله، القاهرة: دار المعارف، ٢٠١١م.

٥ـ الأصبهاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري أبِي الشيخ):

- العظمة، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، ط١، الرياض: دار العاصمة، ١٤٠٨هـ.

٦. البخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي):

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، القاهرة ١٤٢٢هـ.

٧. الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز):

- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس

٢٠٠٣.

٨. الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد الطوسي النيسابوري)

- المنقذ من الضلال، تحقيق: د/عبد الحليم محمود، القاهرة: دار الكتب الحديثة، د.ت.

٩. الترمذي (محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ):

سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة عوض، ط٢، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

١٠. المقريزي (أحمد بن على بن عبد القادر) (ت ٨٤٥هـ):

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت١٤١٨هـ.

المراجع العربية

١١. أبو الحسن الندوي:

- رجال الفكر والدعوة (الإمام الدهلوي)، الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

١٢. أبو الأعلى المودودي:

- موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه (واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم)، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧.

١٣. عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي:

- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى بـ(نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٩م.

١٤. محمد بشير السيالكوتي:

- الإمام المحدث الشاه ولى الله الدهلوي حياته ودعوته، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٥. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية:

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٩٦م

١٦. وفاء العمري:

الدهلوي وآراؤه الكلامية والفلسفية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة٢٠٠٩.

المراجع المترجمة:

١٧. لوثروب استوراد:

- حاضر العالم الإسلامي، تحقيق: شكيب أرسلان، ترجمة: عجاج

نـــويهض، بيـــروت: دار الفكـــر، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

الموسوعات والمعاجم العربية:

١٨. البغدادى (إسماعيل باشا):

- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصـــنفين، طبـــع بعنايـــة وكالـــة المعـــارف الجليلـــة فـــي مطبعتهـــا البهتية، اسطنبول ١٩٠١م.

١٩. الزركلي الدمشقي (خير الدين):

الأعـلام، بيـروت: دار العلـم للملايـين، ٢٠٠٢م.

٢٠. كحالة (عمر رضا):

- معجـم المـؤلفين، دار إحيـاء التـراث العربي، بيروت د.ت،

٢١. الكاشاني (عمر عبد الرازق)

- معجـم اصـطلاحات الصـوفية، تحقيـق: د/عبـــد العـــال شـــاهين، دار المنـــار، القاهرة١٩٩٢م.